

# الباب الثاني

## التعريف بالإسلوب

### الفصل الأول

#### في حد الأسلوب

إذا سمع الناس كلمة الأسلوب فهموا منها هذا العنصر اللفظي الذي يتألف من الكلمات فالجمل والعبارات . وربما قصره على الأدب وحده دون سواه من العلوم والفنون . وهذا الفهم يعوزه شيء من العمق والشمول ليكون أكثر انطباقاً على ما يجب أن يؤديه هذا اللفظ من مضي صحيح . وذلك أن هذه الصورة اللفظية التي هي أول ما تأتي من الكلام لا يمكن أن تحيا مستقلة . وإنما يرجع الفضل في نظامها اللفظي الظاهر إلى نظام آخر منووي انتظم وتألف في نفس الكاتب أو المتكلم فكان بذلك أسلوباً منوويًا . ثم تكون التأليف اللفظي على مثاله . وصار ثوبه الذي لبسه أو جسمه إذا كان المعنى هو الروح . ومعنى هذا أن الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظاً منسقة . وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم . فهذا وجه .

والوجه الثاني أن كلمة الأسلوب صارت هذه الأيام حقاً مشتركاً بين البيئات المختلفة . يستعملها العلماء ليدلوا بها على منهج من مناهج البحث العلمي ، ويستعملها الأدباء في الفن الأدبي قصصاً أو جدلاً أو تقريراً وفي العنصر اللفظي سهلاً أو معقداً . وفي إيراد الأفكار منطقية أو مضطربة

وفي طريقة التخيل جميلة ملائمة أو مشوهة نائية . وكذلك الموسيقيون يتخذونها دليلاً على طرق اللحن وتأليف الأنغام للتعبير بها عما يحسون . ومثلهم الرسامون فهي عندهم دليل على طريقة تأليف الألوان ومراعاة التناسب بينها . وهكذا حتى أصبحت هذه الكلمة — أسلوب — ترادف كلمة الشخصية في المعنى . لهذا كله كان إطلاقها على هذا العنصر اللفظي ضرورة اقتضاها التعليم أولاً ، ولأنه هو مظهر العناصر الأخرى ومعرضها ثانياً . . . . فما الأسلوب ؟

في لسان العرب، ويقال: للسطر من النخيل أسلوب . وكل طريق ممتد فهو أسلوب والأسلوب الطريق، والوجه والمذهب . يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع على أساليب . والأسلوب الطريق تأخذ فيه . والأسلوب الفن يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه .

هذه المعاني التي نقلناها عن ابن منظور قسمان : قسم حسي يمثل الوضع الأسبق للفظ كسطر النخيل والطريق الممتد أو المسلوك ، والأسلوب عليه خِطة يسلكها السائر . وقسم معنوي هو الخطوة الثانية في الوضع اللغوي حين تنتقل الكلمات من معانيها الحسية إلى هذه المعاني الأدبية . أو النفسية وذلك هو الفن من القول أو الوجه والمذهب في بعض الأحيان . على أن هذه المعاني كلها تنتهي بنا عند فكرة إذا أردنا استعمالها في باب الأدب كانت ملائمة ، فالأسلوب هو فن من الكلام يكون قصصاً أو حواراً . تشبيهاً أو مجازاً أو كناية . تقريراً أو حكماً وأمثالا . فإذا صح هذا الاستنباط كان للأسلوب معني أوسع إذ يتجاوز هذا العنصر اللفظي فيشمل الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للاقتناع أو التأثير .

وإذا تر كنا لسان العرب الى مقدمة ابن خلدون رأينا يتناول الأسلوب في فصل صناعة الشعر ووجه تعلمه حيث يقول : « ولندكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة - صناعة الشعر - وما يريدون بها في إطلاقهم ، فأعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب . أو القالب الذي يُفرغ فيه . ولا يرجع الى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب . ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان . ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض . فهذه العاوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية . وإنما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من اعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب أو النسيج في المنوال حتى يتسع القالب بحمول التراكيب الوافية بمقصود الكلام . ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه ، فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به . وتوجد فيه على أنحاء مختلفة . فسؤال الطول في الشعر يكون بخطاب الطول كقوله : يادار ميةً بالعلياء فالسند . ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله : قفنا نسأل الدار التي خف أهلها . أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله : قفنا نيبك من ذكري حبيب ومنزل . وامثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه . وتنظم التراكيب فيه بالجمال وغير الجمال إنشائية وخبرية ، اسمية وفعلية ، متفقة وغير متفقة ، مفصولة

وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي ، في مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك فيه (كذا) ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الدهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها ... وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا النوعين وجاءوا به مفصلاً في النوعين ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً وقد يقيدونه بالاسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب .»

هذا النص الذي نقلناه عن ابن خلدون يضع أمامنا عدة قوانين قيّمة في الدراسات الأدبية .

أولها : أن هناك فارقاً بين الوجهين العلمي والفني في تكوين الأسلوب الأدبي فعلوم النحو والبلاغة والعروض تنفعنا على أنها نظريات ترشدنا في إصلاح الكلام ، ومطابقتها لقوانين النظم والنثر ، وقد يعرفها الطالب ولا يحسن معها الانشاء أو ينشئ الكلام الصحيح فقط . وأما صياغة الأسلوب الجميل فهي فن يعتمد على الطبع والتمرس بالكلام البليغ (١) .

ثانيها : أن الأسلوب في الأصل صورة ذهنية تتماثل بها النفس ويطلع الذوق من الدراسة ، والمرانة ، وقراءة الأدب الجميل ، وعلى مثال هذه الصورة الذهنية تتألف العبارات اللفظية الظاهرة التي اعتدنا أن نسميها أسلوباً لأنها دليله ، وناحيته الناطقة الفصيحة .

(١) راجع المثل السائر ص ٣٠ والصناعيين ص ١٤٧

ثالثها : أن هذه الصورة الذهنية - التي هي الأصل الأول للأسلوب - ليست معاني جزئية ، ولا جملا مستقلة ، بل طريقة من طرق التعبير يسلكها المتكلم ، كخطاب الطفل ، أو استدعاء الصبح للوقوف والسؤال أو الدعاء له بالسقيا كقوله :

أَسْقَى طَوْلَهُمْ أَجْسُ هَزِيمٌ وَتَغَدَّتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمٌ

أو بتسجيل المصيبة على الأَكوان عند فقد شجاع كقوله :—

مَنَابِتِ الْعُشْبِ ، لِحَامٍ وَلَا رَاعٍ مَضَى الردى بطويل الرمح والباع

رابعها : هذه الفروق اللفظية والمعنوية بين المنظوم والمشور من حيث

الأسلوب ، وأهم ما ذكره امتياز النظم بالوزن ، والقافية ، واستقلال كل بيت بمعنى تام ، وسيأتى تفصيل القول فى ذلك .

والذى يعيننا هنا أن الأسلوب منذ القدم كان يلحظ فى معناه ناحية

شكلىة خاصة هي طريقة الأداء أو طريقة التعبير التى يسلكها الأديب

لتصوير ما فى نفسه أو لنقله إلى سواه بهذه العبارات اللفظية . ولا يزال هذا

هو تعريف الأسلوب إلى اليوم ، فهو طريقة الكتابة ، أو طريقة الانشاء ،

أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الايضاح والتأثير .

هذا تعريف الأسلوب الأدبى .

وأما إذا أردنا أن يكون التعريف عاما يتناول العلوم ، والفنون ...

فأنا نعرفه بأنه طريقة التعبير ، لأن الفنون الأخرى لها طرق فى التعبير

يعرفها الفنيون ، ويتخذون وسائلها أو عناصرها من الألحان والألوان

والأحجار . وكذلك العلماء لهم رموزهم ، ومما سألحسأهم ، ومما سألحسهم  
في البحث والأداء .

\* \* \*

ومع ذلك ففي الأدب وحده نرى — كما عرناك تفصيله — أن  
التعريف والاختلاف يكون في صوغ العبارات بين إيجاز وإدئاب ،  
وسهولة وإغراب ، وبساطة وتمقيد ، وجمال وتنافر — ويكون قبل ذلك  
في اختيار الأفكار ، وكيفية ترتيبها ترتيبا منطقيا أو مضطربا ، ووضوحها  
أو غموضها ، وصحتها أو خطئها . وإخضاعها لطريقة الاستقراء أو الاستنباط —  
ويكون بعد هذا في طريقة التخيل والتصوير . هل يسلك الكاتب طريقة  
التشبيه غالبا أو الاستمارة أو الكناية . وما مقدار ابتكاره في ذلك أو  
تقليده . فلكل كاتب مذهبه في ذلك أو أسلوبه الخاص فالشيب  
في رأي المعري :—

والشيب أزهار الشباب فـاله يخفى . وحسنُ الروض في الأزهار ؟  
وهو في رأي الفرزدق :—

تفاريقُ شيبٍ في الشباب لوامعُ وما حسنُ ليلٍ ليس فيه نجومُ ؟  
ولكن الشريف الرضى يقول :—

غالطوني عن المشيب وقالوا لا تترع إنه جلاء حسام  
قلتُ : ما آمن من على الرأس منه صارمُ الحد في يد الأيام  
انظر بعد ذلك إلى كتاب السيرة المعاصرين كيف اختلفوا في طريقة

العرض بين البحث العلمي المنسق والتمثيلي المقسم والقصصي الجميل .  
وانظر إلى هذه الشخصيات المتباينة في الخطابة — كعلى ومعاوية وزيد

والحجاج - وفي الكتابة كالجاحظ وبديع الزمان وابن خلدون وفي  
الشعر كإبي تمام وابن الرومي والبحري والمتنبي -- فانك واجد أنماطاً  
شتى . وأساليب متباينة تجعل لكل فرد طابعاً ممتازاً . . . . أف يكون من  
الغريب إذا قلنا : إن الأسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير ؟

## الفصل الثاني

### تكوين الأسلوب

وهنا نجد فرقا واضحا — في تكوين الأسلوب واستكمال عناصره — بين الطالب المتدبر والكتاب المتدبر ، فالطالب الذي يأخذ في دراسة الكتابة يسلك الطريق الذي يسلكه زميله طالب الموسيقى أو الرسم . نجد تلميذ الموسيقى يبدأ دروسه بتعرف الأدوات الموسيقية والفرق بينها . وطرق استخدامها . وأنواع الألحان والأنغام التي تنتجها كل أداة . ثم ينتقل من ذلك إلى تأليف الألحان المركبة واستخدام أدواتها أو أكثر مع مراعاة الانسجام والتآلف بين الأنغام . . . وآخر الأمر يتعلم كيف يؤلف الدور الموسيقي العام ويتخذ من الأدوات وانظامها وسائل لتوقيع المقطوعات وقد يصل به الأمر إلى التجديد والابتكار . كذلك طالب الأدب يبدأ دروسه بتعلم الحروف وتأليف الكلمات منها ، ثم تأليف الجمل من الكلمات تأليفا خبريا أو انشائيا فعلية كانت أو اسمية ، إيجابية أو سلبية ، مع ملاحظة الفروق الدقيقة بينها وينتقل من الجمل إلى الفقرات المؤلفة من الجمل مفصولة أو موصولة حسب مقتضيات المعاني . . . ولا ينسى طرائق المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والمطابقة وحسن التعليل . . . وأخيرا هذه الأساليب القصصية أو الجدلية أو التقريرية أو الوصفية مشورة ومنظومة . . . ومعنى هذا أنه يبدأ بالألفاظ وينتهي إلى الفنون الأدبية .

أما الكتاب المتدبر فإنه يسير في طريق عكسية ، شأنه شأن الموسيقار البارع تعرض له القطعة الأدبية أو يبدو له تصوير معنى نفسي أو مظهر طبيعي

فيهم المراد ثم يسمعك اياه الخانا منجمته متسقة، تؤدي ما وراءها في دقة وجمال، كذلك الأديب إذا شاء قولاً في الوصف، أو الرثاء، أو القصص، اختار معانيه، ورتبها، وفرد لها طوع مزاجه تفسيراً فنياً، ثم عبر عنها بالألفاظ التي تجذبها المعاني .. هذا الكتاب كما رأيت يبدأ باختيار الفن الأدبي وينتهي بالألفاظ، عكس التلميذ الناشئ.

وسواء أعيننا مجال الطالب أم الكتاب، فإن تكوين الأسلوب أهم المظاهر لبراعة الكتاب والشعراء، وأوضح معرض لقوة الإدراك وبقظة الشعور وجمال الذوق. لذلك كان الكتاب الأمين ذو الطبع الأدبي الصادق، منصرفاً إلى تخير الكلمات الفصيحة، الدقيقة المعنى، المتلائمة مع أخواتها، حتى تطمئن عناصر العبارة في مواضعها دون إكراه، وحتى يجمع الأسلوب بين وضوح التفكير وجمال التصوير.

وهذه الدرجة تتطلب من غير شك مرانة دائبة، وصبراً طويلاً، وذوقاً جيلاً صادقاً وتملؤاً بخير الأساليب الأدبية فيها، ونقداً، وتمثلاً. ويمكن للكاتب أن يلزم نفسه بأمرين اثنين ليوفر لنفسه الفوز بحسن التمييز:-

الأول: الحرص الشديد على الدقة سواء في أداء الفكرة أو في صوغ الخيال، فلا يسمع بكلمة أو عبارة هي أقل أو أكبر من فكرته كما يرفض استمارة قبيحة، أو كناية غامضة، أو تعليقاً غير حسن.

الثاني: التصرف السديد في بناء الجمل والعبارات بتقديم بعض العناصر

أو تأخيرها، وبالقصر أو الفصل أو الوصل، حتى تكون العبارة صورة صادقة لما في نفسه من المعاني وما في وجدانه من تصور وموسيقا. ذلك يتلخص في أن يكون الأسلوب للكاتب طبيعته النائية.



## الفصل الثالث

### عناصر الأسلوب

رأينا في الفصل الماضي أن الخطوة الأولى للكاتب إنما هي اختيار الفن الأدبي الذي يعتمد عليه لأداء ما في نفسه من المعاني فهو مقالة أو قصيدة أو رسالة أو قصة أو خطابة عامة أو محاضرة أو كتاب مؤلف. وبعد ذلك نختار المعاني أو الأفكار والحقائق التي يعتبرها هامة جديدة بموضوعه لجدتها أو قوة تأثيرها أو ملاءمتها لقرائه وساميه، ثم يرتب هذه الأفكار ترتيبا يصل به إلى نتائجها المرادة، سواء أختار طريقة التحليل أم التركيب.. فإذا انتقل من ذلك إلى التعبير عنه بعبارات واضحة تكشف عنه فقد تكون له الأسلوب العلمي أو الأدبي بمعناه العام. كما قيل في وصف الشمس: والشمس كوكب مضيء بذاته وهي أعظم الكواكب المرئية لنا منظراً، وأسطعها ضوءاً، وأغزرها حرارة، وأجزؤها نفعا للأرض التي نسكنها. والكثير من أخواتها سيارات الشمس وبناتها. والشمس كرة متأججة ناراً، حرارتها أشد من حرارة أي ساعور أرضي. ويبلغ ثقلها ثلثمائة وزن من ثقل الأرض. وهي أكبر منها جرماً بثلثمائة ألف وألف ألف مرة. وتدور الشمس على محورها من الغرب إلى الشرق مرة واحدة في نحو خمسة وعشرين يوماً وتبعد عنا بنحو اثنين وتسعين ألف ألف ميل وخمسمائة ألف ميل، وهي مع كل هذا المظلم الهائل لاتمد في النجوم الكبرى، بل إن أكثر ما نشاهده من النجوم الثابتة شمس أكبر من الشمس

بألوف الألوف . والشمس بسياراتها تابع من توابع أحدها (١) »  
 فالن هنا مقالة اقتبس منها هذا النص . ويلاحظ أن الكاتب كان  
 حريصاً على إثارة الحقائق القيمة الدقيقة ، ثم رتبها ذكراً مسألاً عامة تميز  
 الشمس من الكواكب الأخرى ، وأتبع ذلك بذكر الخواص المتصلة  
 بشكلها وحرارتها وحركتها ، وأخيراً هذه العبارة الواضحة المؤلفة من  
 الكلمات والنراكيب . وهنا نستطيع أن نقول إن الأسلوب العلمي يتكون  
 من عنصرين أساسيين : الأفكار . والعبارات . وأما اختيار الأفكار  
 وتنسيقها . وإثارة الكلمات الدقيقة والجمال الواضحة . . . فذلك عمل  
 أسلوبى لأنه طريقة يقوم بها الكاتب متأثراً بموضوعه من جهة وبشخصيته  
 من جهة أخرى . وقد يتوافر الأسلوب خاصة أخرى . حين يلجأ الكاتب  
 إلى الخيال يصور به انفعاله . . عاطفته . . فيضيق دائرة الأفكار ويأخذ  
 منها أجلتها وأشملها على أسباب القوة والجمال . ثم يفسرها تفسيراً أدبياً كما  
 يشاء خياله . ويعلى عليه طبعه ومزاجه ، وبذلك نقرأ أسلوباً أدبياً خالصاً  
 تبدو فيه شخصية الكاتب أشد وضوحاً وأبعد تأثيراً كما قيل في الشمس  
 كذلك : « سأل الشمس من رفعها ناراً . ونصبها مناراً . وضربها دينارا ؟  
 ومن علقها في أجو ساعة ، يدب عقربها إلى يوم الساعة ؟ ومن الذي آتاها  
 معراجها ، وهداها أدراجها وأحلتها أبراجها . ونقّلت في سماء الدنيا  
 سراجها ؟ »

الزمان هي سبب حصره . ومُنشعبُ فُرُوعه وأصوله . وكتابه  
 بأجزائه وفصوله . وُلد على ظهرها . ولعب على حجرها . وشاب في

طاعتها وبرّها لولاها ما اتسقت أيامه ، ولا انتظمت شهوره وأعوامه . ولا  
اختلف نوره وظلامه . ذهب الأصيل من مناجمها . والشفق يسيل من  
مجاجمها . تحطمت القرون على قرنها . ولم يعل تطاول السنين بسنها ولم يمح  
التقادم لمحة حسنها (١) .

هذا النص يختلف عن سابقه مع اتحاد موضوعهما . فالأول وقف عند  
الحقائق والعبارات وصاغ منها الأسلوب العقلي الخالص . والثاني تجافى عن  
الحقائق التفصيلية الدقيقة كالأعداد والمقاييس ، ووقف عند رؤوس الأفكار  
وأهمها ، ثم تصوّر لها أشياء جميلة لا عجايبه بها . وصورها بخياله فكانت جميلة  
مؤثرة . فالشمس دينار مضروب وساعة معلقة عقرباها الليل والنهار . وهي  
كتاب الزمن ومهده وأمه ، وهذا الأصيل ذهب من مناجم الشمس والشفق  
سائل من مجاجمها . . . . . الي غير ذلك مما تفصله بعد . وبذلك نقول ان الأسلوب  
الأدبي ينحل الى عناصر ثلاث . الأفكار والصور والعبارات . وكذلك يكون  
الاختيار الذي يتناول الأفكار والصور والعبارات عملاً أسلوبياً ، هو طريقة  
الصياغة التي تتصرف في تلك العناصر بما تراه أليق بموضوع الكلام .

فاذا كان الفن شعراً كقول حافظ إبراهيم في الشمس :—

لاح منها حاجب للناظرين	فنسوا بالليل وضاح الجبين
وخت آيشها آيته . . . . .	وتبدت فتنة للعالمين
هي أم النار والنور معا	هي أم الريح والماء المعين
هي طلوع الروض تسورا وجنى	هي نشر الورد طيب الياسمين
هي موت وحياة للورى	وضلال وهدى للغابرين (٢)

لاحظت الوزن والقافية يلزمان الشعر فوق هذه العناصر التي ذكرت  
في الأسلوب الأدبي، والتي سنجد أنها في باب النظم تختص بميزات فنية  
نشرحها في الكلام على أنواع الأساليب.